محمد بن شهاب الزهري

ونشاطه في مجاليّ السيرة والحديث

بقلم : الدكتور لطفي منصور

محمد بن شهاب الزهري قرشي مكي ، ويتعتبر من أكبر علماء المسلمين في الربع الأول من القرن الثاني الهجري ، ولم تقتصر شهرته على علم الحديث فقط ، وإنما امتدت لتشمل المغازي والتفسير والإسرائيليات وهي مادة التفسير والتاريخ والقصص المأخوذة من كتب أهل الكتاب ، وخاصة اليهود (١٦٠).

درس الزهري على يد كبار علماء المدينة، وهو يعد أربعة منهم كان لهم أكبر الأثر في ثقافته الدينية ، ويسميهم «بحور العلم» ...

هناك شبه إجماع أن وفاة الزهري كانت سنة ٥٦هـ ـ وهو ينفي أن يكون الزهري قد دخل ١٢٤هـ ، ومنهم من يجعلها سنة ١٢٥هـ (١٦١) أما بالنسبة لولادته ، فهناك روايات ثلاث :

ـ يقول خليفة بن خياط (ت ٢٤٠) : ولد الزهري سنة خمسين أو إحدى وخمسين ، لأنه يقول عن نفسه «وفدت إلى مروان وأنا محتلم» (١٦٢) .

ـ يقول يحيى بن بكير (١٦٣) : ولد الزهري سنة

نسلم أن الزهري في ذلك السن كان له من الشهرة بحيث يعتمد عليه الخليفة ، بالنسبة لقضية فقهية هامة .

لقد أعطى هوروفتس حلاً يمكن قبوله ، فهو يرى أنه يمكن قبول رواية اليعقوبي ، شريطة أن يكون الزهري قد سافر إلى دمشق على أثر الحظر الذي فرضه ابن الزبير ليبلغ الخليفة عبد الملك حديثًا يجيز الحج إلى القدس بدلاً من مكة ، وفي الوقت نفسه يطلب مساعدة الأمويين للتغلب على ضائقته المالية (١٧٤) .

ومن جهة أخرى من الصعب علينا التشكك في صحة الحديث النبوي ذاك ، لأننا نجده في غالبية مجموعات الحديث ، وروايته في أغلب الأحيان عن الزهري .

وقد بحث قسطر الحديث المذكور ، ووقف على الروايات التي تعطي القدس مكانة توازي مكة والمدينة ، وأخرى تسلبها المكانة ، وقد ثبت بطريق غير مباشر صحة ذلك الحديث (١٧٥) .

مكث الزهري في دمشق بعد موت عبد الملك مسديًا خدمات جلى للأمويين ، حتى غدا من أكبر المقربين للقصر الأموي ، وقد عينه الخليفة يزيد الثاني (١٠١-١٠٥) قاضيًا لدمشق ، ووصل إلى أعلى مكانة في زمن هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥) حين عينه مؤدبًا لبنيه ، الأمر الذي أعطاه أن يكون الشخصية البارزة في حاشية هشام حتى موته سنة ١٢٤هـ (١٧٦) . درس الزهري على يد كبار علماء المدينة ، وهو يعد أربعة منهم كان لهم أكبر الأثر في ثقافته الدينية ، ويسميهم «بحور العلم» وهم :

اعتاد الزهري أن يكتب رواياته خلال جهده في جمع الحديث، ولكننا لا نملك كتابًا منفردًا في أي من المواضيع التي عالجها ...

الأول : سعيد بن المسيب (ت سنة ٩٤هـ) ، ويذكر الذهبي أنه جالسه عشر سنين حتى حصّل علمه .

الثاني : عروة بن الزبير ، وقد تقدم الحديث عنه .

الثالث : أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري (ت سنة ٩٤هـ) .

الرابع : عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود (ت سنة ٩٨هـ) .

ويعرف هؤلاء الأربعة باسم «بحور قريش» وقد جمع الزهري علمهم إلى علمه .

لم يكتف الزهري بما سمعه من علماء مدرسة المدينة ، بل كان يستغل كل مناسبة للتعلم ، ولم يكن يتردد بالدخول على دور الأنصار ليجمع الأحاديث من شيوخهم رجالاً ونساء (١٧٧) مما جعله يفوز بلقب «أعلم أهل المدينة» ووصفه الخليفة عمر بن عبد العزيز قائلاً :«لا

أعلم أحداً أعلم بسنة ماضية منه» (١٧٨) .

وتعتمد ثقافة الزهري العلمية على عاملين رئيسيين ، كان لهما الفضل في اتساع دائرة علمه :

الأول : كان يتمتع بذاكرة قوية ، مكّنته من استيعاب كل ما سمع ، وحاول تقويةذاكرته بشرب العسل صباحًا (١٧٩) .

ومغازي الزهري في «المصنف» تمتد على مائة وثلاثين صفحة، تعالج الفترة الجاهلية، والمكية، وفترة المدينة ...

الثاني : وهو أهم من الأول ، اعتاد الزهري ودأب أن يكتب مسموعاته من مصادرها ، الشيء الذي مكنه الرجوع بسهولة إلى مصادره المكتوبة عند حاجته إليها .

ويقول أبو الزناد (ت سنة ١٣٠هـ) (١٨٠) : «كنت أطوف أنا والزهري ، ومعه الألواح والصحف ، فكنا نضحك به » (١٨١) ، وروى ابن سعد أن صالح بن كيسان (ت سنة ١٤٠هـ) قال : اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم، فقلنا نكتب السنن ، قال : وكتبنا ما جاء عن النبي . قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سنة . قال : قلت إنه ليس بسنة فلا تكتبه . قال : فكتب ولم أكتب ، فأنجح وضيّعت (١٨٢) .

وتفيد المصادر أن الزهري قد جمع مكتبة كبيرة ، وكان يحيط نفسه بكثير من الكتب ، وعندما قتل الخليفة الوليد الثاني (١٨٣) ، حملت الكتب على الدواب من خزائنه من علم الزهري .

وفي عصر الزهري لم يكن الرواة قد اعتادواكتابة رواياتهم ، ويعتبر الزهري أول رائد في كتابة الحديث ، قد خرج على عادة الرواة تلك ، ومن الجدير بالذكر أن الكتب المذكورة لم تكن كتبًا بالمعنى المعروف للكلمة ، وقد وصفت بأنها دفاتر أو صحائف كانت تحوي ملاحظات الزهري ويروى أن خلفاء بني أمية هم الذين أمروا الزهري أن يكتب لهم ما كتب ، فقد كتب مثلاً لهشام وأملى على بنيه أربعمائة حديث من حفظه ، كان قد كتبها لوالدهم الخليفة الذي أراد اختبار حفظه ، وقد ألقى الزهري المسؤولية في كتابة الحديث على الخلفاء الأمويين ، ويفهم من رواية عند ابن سعد أن الزهري قد أبدى تحفظه أولاً من كتابة الحديث ، حتى اضطره إلى ذلك أمراء بني أمية ، فكتب ، وعندها لم ير سببًا في منع الناس عن كتابته (١٨٣) .

إن تسامح الزهري في الرواية ، وخدمته للأمويين فتحت بابًا من النقد ضده (١٨٥) ويقول جولدتسهير : إن الأمير الأموي إبراهيم بن الوليد ، قد توجه إلى الزهري طالبًا منه أن يجيزه رواية كتاب في الحديث عنه دون أن يقرأه عليه ، وامتثل الزهري لرغبة الأمير وقال له سائلاً : «من يعلمك الحديث غيري؟» ، ويضيف جولدتسهير :«وأحيانًا كان ضمير الزهري يتحرك فيلقي المسؤولية على الأمراء» (١٨٦).

مؤلفات الزهري :

إننا مقتنعون بأن الزهري قد اعتاد أن يكتب رواياته خلال جهده في جمع الحديث ولكننا لا نملك كتابًا منفرداً في أي من المواضيع التي عالجها ، وقد بحث هورفتس قضية الزهري ، وأشار إلى عدة مؤلفات معزوة له (١٨٧) :

١. كتاب أسنان الخلفاء ـ عرفه الطبري ، واستعمله في عدة أماكن من تاريخه .

٢. أنساب القبائل العربية الشمالية ـ ألفه لخالد بن عبد الله القسري ، ولم يكمله .

٣. كتاب السيرة ، هو أهم كتبه بالنسبة لنا ، ويقال إن الزهري استجاب لطلب خالد القسري لتأليفه ، وطلب منه أن يغض من مكانة علي بن أبي طالب فيه (١٨٨) .

وذكر السخاوي أن للزهري كتابًا آخر ، يدعى «مشاهد النبي » أي حروبه ، لم يعرفه هورفتس ، وذكر حاجي خليفة أن الزهري قد ألف كتابه «المغازي» وهو يعزز رأي السخاوي بأن الزهري قد ألف فعلاً في المغازي (١٨٩) ، ويضيف السخاوي أن الحجاج بن أبي منيع (ت سنة ٢١٦هـ) قد روى هذا الكتاب عن الزهري نفسه (١٩٠) .

أعطى الزهري أهمية كبرى للإسناد، ونظر إلى أدب السيرة كجزء من مادة الحديث يوجب الإسناد، واهتم بالإسناد الجمعي

ويظهر أن الزهري قد استعمل كلمتي «سيرة» و «مغازي» بمعنى واحد ، غير أن الكلمة الأولى لم ترد عنوانًا لأحد من مؤلفاته بعكس الكلمة الثانية ، فإن «مغازي» الزهري تتكرر كثيراً في المراجع التاريخية (١٩١) .

ويبدو كذلك من روايات الزهري في المغازي، التي وصلتنا عند ابن اسحق والطبري وغيرهما أنه اهتم في مغازيه بمراحل السير الثلاث : المبتدأ ، والمبعث ، والمغازي (فترة المدينة) .

وقد أفرد "عبد العزيز الدوري" بحثًا خاصًا عن الزهري باللغة الانجليزية (١٩٢) ثم ترجمه إلى العربية في كتابه «نشأة علم التاريخ عند

العرب» وقام بهذا البحث بتشكيل هيكل لسيرة الزهري ، بأن رتّب الروايات المنسوبة إليه في مصادر كثيرة ترتيبًا كرونولوجيًا ، ولم يذكره هورفتس أيضًا ، مع كونه يحوي مادة وفيرة من مغازي الزهري ، هذا المصدر هو «المصنّف» لعبد الرازق الصنعاني .

وقد جلب نظري خلال دراستي في «المصنف» روايات كثيرة في المغازي مسندة إلى الزهري وبروايته ، وبما أن مادة المغازي في «المصنف» تعود بمعظمها إلى الزهري ، توصلت إلى نتيجة أن عبد الرازق قد استخدم مغازي الزهري ، وأفاد منها وأودعها ، أو قسمًا منها في كتابه المذكور .

ومغازي الزهري في «المصنف» تمتد على مائة وثلاثين صفحة ، رواها عبد الرازق عن شيخه معمر بن راشد عن الزهري ، وتعالج الفترة الجاهلية والمكية، وفترة المدينة وترتيبها في «المصنف» كالآتي :

مواضيع فترة الجاهلية :

١. حفر بئر زمزم (٣١٣-٣١٨) جميع المغازي تقع في المجلد الخامس.
٢. حريق الكعبة ، هدمها وبناؤها .
٣. تحكيم النبي ﷺ في وضع الركن .
٤. صفات النبي ﷺ .

مواضيع الفترة المكية ـ المبعث :

١. زواج محمد ﷺ من السيدة خديجة .
٢. الوحي والرسالة .
٣. إيمان خديجة وورقة بن نوفل بالنبي ﷺ وتصديقه .
٤. الملاك جبريل والقرآن .
٥. الدعوة إلى الإسلام ، والمسلمون الأوائل .
٦. إسلام عمر رضي الله عنه .
٧. مضايقة القرشيين للنبي ﷺ وأصحابه .
٨. الهجرة إلى الحبشة (٣٨٤-٣٩٧) .
٩. الإسراء والمعراج (ص٣٢٨) .

اهتم الزهري بأخبار الأنبياء السابقين، وهم الأنبياء التوراتيون، وأدخل الإسرائيليات إلى منهج التفسير القرآني ومدارسه ...

مواضيع من الفترة المدنية :

١. أحداث الحديبية ، وهجرة نساء مؤمنات من مكة إلى المدينة (٣٣٠-٣٤٠) .
٢. حديث أبي بصير (٣٤١-٣٤٢).
٣. حديث هرقل (٣٤٣-٣٤٧) .
٤. غزوة بدر (ص ٣٤٨) ، لا يعطي الزهري هنا تفصيلات كثيرة والسبب على ما يظهر اشتراك جده عبد الله بن شهاب بجانب المكيين فيضطر عبد الرازق إلى إكمال

الموضوع من مصادر أخرى .

٥. غزوة هذيل بالرجيع .

٦. غزوة بني النضير(٣٥٧-٣٦١).

٧. غزوة أحد (٣٦٣-٣٦٧) .

٨. الأحزاب وبنو قريظة (٣٦٧-٣٧٢) .

٩. غزوة خيبر (٣٧٢-٣٧٤) .

١٠. فتح مكة .

١١. غزوة حنين (٣٧٩-٣٨٣) .

١٢. حديث المخلفين (٣٩٧-٤٠٥) .

١٣. العلاقة بين الأوس والخزرج .

١٤. حديث الإفك (٤١٠-٤١٩) .

١٥. مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٢٨-٤٣٩).

١٦. بيعة أبي بكر واختياره خليفة للنبي ﷺ (٣٣٩-٤٤٥) .

من النظر إلى هذه المواضيع يتبين لنا أن ما وصلنا من سيرة الزهري في «المصنف» يشكل هيكلاً عامًا لسيرة الزهري فقيه القصر الأموي، وفي الوقت نفسه تكمل ما قام به الدوري في وضعه لسيرة الرجل في النسق التاريخي لمؤلفي السير والمغازي .

كما أن الهيكل الذي رسمه الزهري لسيرة النبي ﷺ قد أفاد منه ابن اسحق كثيراً ، وكان من اليسير عليه أن يحشوه بالتفاصيل الدقيقة وكان الزهري واعيًا لتسلسل الأحداث التاريخية المتصلة .. ويكثر من ذكر الآيات القرآنية التي تتصل بما يورد من أخبار .

واهتم الزهري بأخبار الأنبياء السابقين ، وهم الأنبياء التوراتيون ، وأدخل الإسرائيليات إلى منهج التفسير القرآني ومدارسه ، وهنا يظهر كعب الأحبار واحداً من مصادر الزهري الأساسية ، واعتماد الزهري على أبناء أهل الكتاب وعلمائهم قد فتح مجالاً أمام الأجيال القادمة بالانكباب على «الإسرائيليات» واتخاذها مصدراً هامًا في مؤلفاتهم التاريخية ، وعلى الأخص تلميذه ابن اسحق حيث شكلت «الإسرائيليات» عنده ـ كما سنرى ـ نافذة للطاعنين فيه (١٩٦).

إن الأسطورة وأدب الخوارق قد لقيا طريقهما إلى مغازي الزهري ، ويبدو أن الزهري قد تأثر بمن سبقه بإدخال عنصر الأسطورة في أدب المغازي ، فنراه يتحدث عن هرقل ونظرته الإيجابية للرسالة المحمدية ، وما بدا على يديه من خوارق ، كذلك أصوات التحذيرات التي كان يسمعها كسرى ، وحديث سراقة وغوص فرسه ، وغيرها (١٩٧) .

ومهما يكن من أمر فإن الزهري يبقى الشريان الرئيسي الذي غذّى سيرة ابن اسحق ، وواحداً من مصادره الأساسية ، ويبقى تأثيره واضحًا على جميع مؤلفي السير في القرون التي تليه .